## ستديو ثقافة شعبية

الجسر العباسي في زاخو(جسر دلالى)

احد المدافع التي استخدمها البريطانيون في ثورة العشرين

من المحرر

# التغيرات في البيئة الشعبية

باسم عبد الحميد حمودي

جاء عرض مسرحية (ظلال على نافذة غائب) التي كتبها الاستاذ علي حسين خصيصاً لنهار (المدى) التاسع استعادة لصياغات الروائي الكبير غائب فرمان للبيئة الشعبية حيث برزت شخصيات علوان ابو البايسكلات وسليمة الخبازة ومرهون وحسين مردان وعبد المجيد الونداوي والسيد معروف وسواهم، وتداخلت بيئة المثقف الخمسيني وعالمه من عوالم اكثر قتامة، واكثر استلاباً واذا كان المقهى الشعبي ايامها مركزاً اساسياً من المراكز المدنية في الحي او الطرف فان القصخون كان سيد السرد الرمضاني وكان (الشقاوة) والاشقياء عالماً متلاصقاً مع البيئة الشعبية التي تقبل هذه الوظيفة الاجتماعية اذا كانت لصالح الحي وترفضها وتعمل على تصفيتها اذا كانت شريرة.

وكانت شخصية الحرامي غير شخصية الشقي، واذا حدث وان سرق منزل انتبه الناس في المحلة الى هذه الظاهرة وعملوا كثيراً على اكتشاف الشقي السارق حتى يعثرون عليه او يختفي من الحي.

وكانت هذه الصور الاجتماعية لا علاقة لها بايام الغزو والحرب الداخلية والفتن حيث تشجب صورة المجتمع المتماسك قليلاً ولكن تقاليد الايجاب في المجتمع السكوني (في بغداد او المدن الاخرى) تظل راسخة لا تتغير فالجار يعين الجار بغض النظر عن مذهبه او دينه ويدافع عنه ويقف الى جانبه واذا كان ايقاع العصر قد غير الكثير من العادات والتقاليد فان روح الايجاب ما تزال سارية في مجتمعنا وان اختلفت تفاصيل الصورة وتغيرت بمقتضى العصر واكتشافاته.

لم يعد القصخون موجوداً بل المسلسل التلفزيوني هو البديل، ولم يعد شقاوة الطرف وظيفة اجتماعية بل دخل المجتمع اشكالا اخرى من الشقاوة السلبية تمثلت في مكاتب الاحتيال الوهمية وعصابات القتل والتسليب، وتماسكت العائلة والعشيرة اكثر بفعل سلوك الخارج السلبي الواقع عليها، وصار المنزل الخاص اكثر انفتاحاً زمن الهدوء والايجاب واكثر انغلاقاً وقت الشدائد ولم تعد مقهى الطرف معلماً اجتماعياً في الكثير من المحلات للتغيير الذي حصل فيها ولكنها ما زالت ثابتة في محلات واماكن ومدن اخرى تؤدي وظيفتها القديمة في التعارف ومساعدة المحتاج واسناد الغريب.

نخلص من ذلك ان تقاليد ووظائف جديدة قد ظهرت في البيئة الشعبية واختفت وظائف اخرى لصالح حركة التغيير والتجديد سلباً وايجاباً حتى على صعيد الحوار والمثل الشعبي والازياء والسلوك اليومي للكثيرين.

لم يعد القصخون موجوداً بل المسلسل التلفزيوني هو البديل، ولم يعد شقاوة الطرف وظيفة اجتماعية بل دخل المجتمع اشكالا اخرى من الشقاوة السلبية تمثلت في مكاتب الاحتيال الوهمية وعصابات القتل والتسليب، وتماسكت العائلة والعشيرة اكثر بفعل سلوك الخارج السلبي الواقع عليها، وصار المنزل الخاص اكثر انفتاحاً زمن الهدوء والايجاب واكثر انغلاقاً وقت الشدائد ولم تعد مقهى الطرف معلماً اجتماعياً في الكثير من المحلات للتغيير الذي حصل فيها ولكنها ما زالت ثابتة في محلات واماكن ومدن اخرى تؤدي وظيفتها القديمة في التعارف ومساعدة المحتاج واسناد الغريب.

من بقايا الذاكرة

# زيارة الى الشيخ جلال الحنفي

نبيل العطية

كان ذلك في منتصف السبعينيات، وربما بعد هذا التاريخ بقليل على ما اذكر، حين اقترح رئيس هيأة تحرير مجلة "رسالة النقل" الصادرة عن وزارة النقل والمواصلات آنذاك، والتي كنت عضواً في هيأة تحريرها ضرورة تطوير هذه المجلة الفصلية والمتخصصة بشؤون النقل مادة، واخراجاً.

وكان "استكتاب" أكابر الكتاب، من ذوي المكانة الرفيعة وتوسيع مساهمتهم فيها اول مفردة لتحقيق تطورها المنشود، وجعلها اكثر حيوية، واوسع تداولاً بين جمهورها، على الرغم من انها لاتباع في المكتبات ويُكتفى ببيعها على منتسبي الوزارة بغية تثقيفهم بقضايا النقل والمواصلات وزيادة معارفهم في هذا الحقل المهم من حقول الاقتصاد الوطني.

ويتعين عليّ ان اقول إن المجلة تعاني من "اعراض" جل الموظفين، وندرة قرائها الحقيقيين، بسبب "جفاف مادتها" وتقليدية موضوعاتها، وضعف اخراجها الفني، بل اكاد اقول انها تفرض فرضاً على الموظفين المساكين، وتلك ضريبة ثقيلة، كما هو واضح!

كان اسم الشيخ الجليل المرحوم جلال الحنفي البغدادي من اوائل ما طرح من اسماء لتحقيق هذا الهدف إذ كان كاتباً موسوعياً، اديباً، لغوياً، خطيباً، شاعراً، معنياً بالتراث البغدادي، عارفاً بتاريخ محلات بغداد القديمة وأصول مسمياتها، هذا الى جانب ما يمتلكه من رصيد علمي في حقول: التجويد، والاصوات، والعروض، والموسيقى والمقام لذلك لقي الاقتراح باختياره ترحيب اعضاء هيأة التحرير كافة، ودون اعتراض.

في صباح يوم نيساني جميل توجهت رفقة عضو هيأة التحرير، زميلي الصحفي والمترجم السيد صالح مزيد الدبوس الى محلة "سوق الغزل" والى "جامع الخلفاء" تحديداً لزيارة الشيخ الحنفي، امام وخطيب هذا الجامع دون موعد سابق معه، فالفيناه في الشارع الفرعي الموازي للجامع من جهة باب المعظم.

لم اكن التقيت به شخصياً، غير ان صورته تلفازياً كانت شائعة، بسبب نشاطه الثقافي العام بدا الحنفي لي رجلاً متوسط القامة، مخيفاً، اسمر اللون، يضع عمامة صغيرة على رأسه، و"عيينات" على وجهه.

ولعل من طريف ما اذكر انه كان يتحدث باللغة الصينية مع طفل صغير لا يتجاوز عمره سبع سنوات.

انه ابني! كذا قال، واردف: لقد ولد في الصين، وعند عودتي الى العراق لم يكن يعرف شيئاً من العربية، الا انه، بسبب اختلاطه مع اترابه من سكنة هذه المحلة، وولعه بلعب "الدعابل" و"العكاب" بدأ يفقد الكثير من مفردات اللغة الصينية، وحرصاً مني على عدم نسيانه الصينية، فانا اتحدث معه بها لكي لا ينساها ان تعلم أية لغة ثروة، ولا اريد له ان يضيع هذه الثروة.

قدمت نفسي، وزميلي اليه، وعندما علم اني شقيق الدكتور جليل العطية –وكان صديقه- هش وبش.

كان شقيقي استاجر شقته القريبة من الجامع، وقد حجز في احدى غرفها غرفة خاصة باثاثه ضماناً لحصوله عليها بعد عودته من الصين مُوفداً اليها، استاذاً لمادة العربية في جامعة بكين ادخلنا الشيخ الحنفي الى الجامع عبر بابه الرئيسة وصعدنا سلماً يفضي الى الطابق العلوي ذاهبين مباشرة الى مكتبه البسيط في مظهره، توسطت المكتب منضدة صغيرة عليها آلة كاتبة فيما كانت تجاورها منضدة اكبر وضعت عليها مجموعة من الكتب.

بعد استراحة قصيرة، فاتحناه بنية مجلة "رسالة النقل" استكتابه بموضوع خاص بالنقل في مدينة بغداد تحديدا، وذكرياته الشخصية عن وسائل النقل قديماً، وهل لديه مقترحات لتطوير النقل في هذه العاصمة التاريخية العريقة؟ وقد رحب الرجل، ووعد خيراً.

بعد اسبوع زرنا الحنفي، وكان عند وعده، دقيقاً، ملتزماً، فقد انجز مقاله سارداً فيه ذكريات لطيفة عن النقل وتاريخه ببغداد، ووسائطه. وكان حقاً يعكس روح الشيخ، ورصانة اسلوبه، وسعة معرفته بالحياة البغدادية، التي كان النقل يُشكل جانباً مهماً منها كان المقال فولكلوري الطابع، شعبي التوجه، وكان لعربات النقل المجرورة بالاحصنة مما يسمى "الربلات" والازقة الفرعية، والطرق الرئيسة، والمحلات الشعبية، واسمائها وصف بارع يلمسه القارئ.

كُنا –انا وزميلي- دخلنا الى الشيخ مباشرة وصعدنا السلم الى غرفته العلوية، ولاقل الى "مُعتكفه العلمي" كانت الضربات على الالة الكاتبة تصل الى مسمعينا واضحة على الرغم من انها تجد منافسة شديدة من اصوات السيارات وهتافات الباعة في الشارع العام.

كان الحنفي مستغرقاً في انتساخ مادة كتابه "العروض" تهذيبه، واعادة تدوينه رقم هذا الكتاب كان الثلاثين في تسلسل انتاجاته، كما اعلمنا بذلك.

والحق انه كتاب مهم وضع فيه خطة لمعالجة القيود الصعبة التي طوقت "اعنق" علم العروض" باقتراحه الغاء جمهرة كبيرة من التعليلات، التي لا قيمة لها في الواقع التطبيقي لاوزان الشعر وتفاعيله، كما قال: وقد صدر سنة ١٩٧٨ عن وزارة الاوقاف.

كانت الزيارة هذه المرة اقصر من سابقتها ومما تخللها سؤاله عن "المشروعات الثقافية" لشقيقي المرحوم الدكتور خليل ابراهيم العطية الذي كان صديقه ايضاً فاجبته انه يعكف على تأليف كتاب يتناول فيه علم الصوت عند العرب وجهودهم في هذا المضمار عنوانه "في البحث الصوتي عند العرب" ففرح، اذ كان للشيخ الحنفي اهتمامات بالصوت، والالقاء الصوتي وقد كان مديراً واستاذاً محاضراً في المركز الاقرائي الواقع في بناية الجامع نفسه ومما اثاره في سياق هذه الزيارة تأليفه اول معجم عربي صيني ضم آلاف الكلمات، وربت صفحاته على الخمسة آلاف صفحة، الا انه فقده ولم يعثر له على اثر قال ذلك وقد علت وجهه امارات حزن ظاهرة على أثر مهم –لو لم يضع- لكان له صدى واسع في اوساط المعجميين، لانه اول معجم في هذا الضرب من التأليف.

تلك هي لمحات عابرة عن رجل "غير عابر" في حياة بغداد، واهلها، وتراثها، وادبها، ونشاطها العلمي المتميز وسيبقى هذا الشيخ الجليل الموسوعي، بما الف وانتج من الآثار الحسنة حياً في ذاكرة بغداد الابدية ولعل توثيقه للهجة بغداد عبر كتابه: معجم العامية البغدادية باجزائه الثلاثة، وما ألف عن امثالها العامية، وحياتها اليومية، وشمائلها في عشرينيات القرن الماضي يُشكل دليلاً واضحاً على حيوية جانب مهم من رصيده العلمي والثقافي.

بعد صدور العدد المتضمن مقالة الشيخ جلال الحنفي، ارتأيت ان اتوجه بسؤال الى مجموعة من منتسبي وزارة النقل عما استرعى انتباههم فيه فقالوا بما يُشبه الاجماع انه مقال الشيخ جلال الحنفي لانه في غاية الطرافة اسبغ الله عليه وفير رحمته.

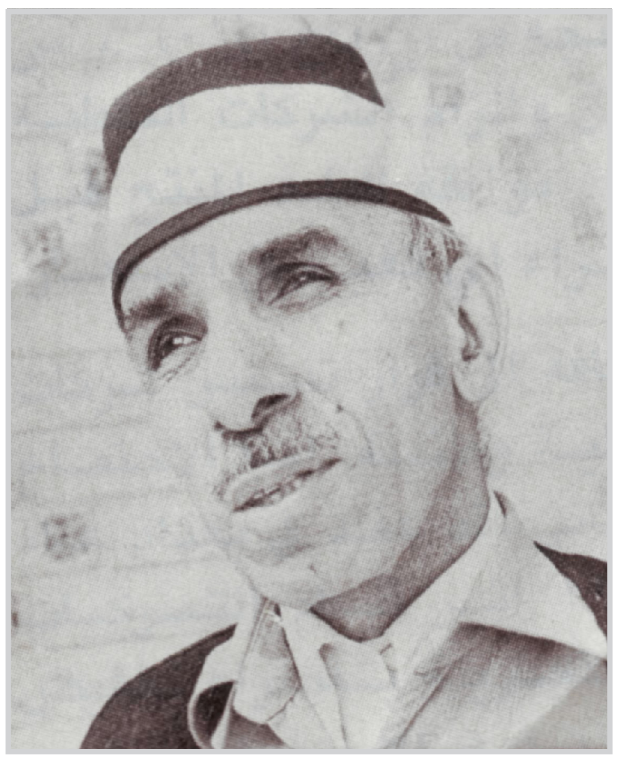
الشيخ جلال الحنفي

# كيف نحافظ على تراث بغداد وأمجادها ؟

رفعت مرهون الصفار

خذي نفس الصبا بغداد أني ... بعثت لك الهوى عُرضاً وطولاً
هواءك إذ نهش له شمالاً ... وماءك إذ نُصنفه شمولاً
خُذي سَجع الحمام فذاك شعرٌ ... نظمناهُ فرتلهُ هديلاً

لقد كتب وألف ونظمت القصائد وتحدث الكثير عن بغداد ومعالمها وقصورها وجامعاتها ومساجدها وعلمائها وفقهائها ومن حكمها وتجاراتها والآلام والأحداث والظروف التي مرت بها والأمراض التي فتكت بها ( كالطاعون والهيضة ) والفيضانات والحروب وما نتج عنها من تدمير وويلات إلا انها بقيت بغداد فنهضت شامخة مرفوعة الرأس ( تعتبر بغداد المدينة الوحيدة التي تبقى رغم ما تمر بها من محن )

على بغداد ما بقيت سلام ... يضوع كما ذكا للورد نشر
يظلل دجلة منها جناح ... كما باهى بقادميته نسر
فيا بغداد لا ينفك سر ... لِحسنك ينجلي فيدق سر

بغداد ياظل الاماني وأعجوبة الزمان ، ويامؤل الأحرار وياقلعة الأسود ويامكملة الأعراس ويا كعبة العلم والأدب والفن ، ويا مثابة المجد ويا توأم التاريخ وبهجة الدنيا، ويا حمى العروبة وراية الأسلام ويا طلعة اللألى وجنة الاحلام .

ماذا سأكتب فيكِ يا محبوبتي ... فهواكِ لايكفيه ألفُ كتاب

وبغداد لايكتب أو يتحدث عنها إلا من يعرفها تمام المعرفة ويقدرها حق قدرها إلابنوها النجباء ، الأصلاء العريقون ، وساكنوها الذين كانت مساقط رؤوسهم فوق ترابها الطهور .. فأنهم أجدر برواية مأثرها وأحرى .. وهم أعلم بأخبار مفاخرها وأدرى وأستطراداً يرد القول صحيحاً وصريحاً ، في أن بغداد المدينة والناس والتاريخ وبكل ما فيها وما عليها وما لها . وبكل ما دخل أليها وخرج منها وصدر عنها هي ( الكل ) الذي تتألف منه الأجزاء ، المحلات ، الشوارع ، والدروب( الأزقة ) المعالم ، الأثار المساجد ، المدارس ، الناس الذين يعملون فيها ، وكل مايتعلق بها وبسياقاتها . والحياة وحاراتها من شؤون وشجون ، وليس من مدينة أو موقع أو محلة ألا ولها ماض مكتوب في سجلات التاريخ ومروي للناس ولها أيضاً حاضر مشهود ومعهود يعيشه الأحياء المعاصرون ، أما المستقبل فأمره بيد الله لأنه سيكون للأجيال الأتية حاضرا سيتلوه مستقبل أخر وهكذا سيبقى الزمان موصول الحلقات ولكن هذا الماضي وما يتبعه من حاضر ثم المستقبل سينسى في القريب والبعيد تبعاً لتوالي الزمان ما لم تدون مفرداته من حوادث ووقائع ومشاهد وصور وذكريات ومناسبات ومبادرات ومعارك وسير وتراجم الناس الذين صنعوا تلك الأحداث ومن ذلك كل حارة من حارات بغداد حيث ملاعب الطفولة والصبا ومرابع الشباب ثم الرجولة كهولة ومشيباً وحيث الذكريات حلوها ومرها التي تمحي الدنيا ومن فيها وما فيها ولا تنسى أو تغيب عن أفكارنا ومراحل حياتنا ، وكل مابعدت الأيام أزداد شوقنا ألى أستذكارها وكثر تطلعنا نحوها نستذكرها بكثير من الشوق والحنين

وحبب أوطانا الرجال أليهم ... مأرب قضاها الشبابُ هنالكا
أذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذاكا

والمثل الشعبي يقول : أذا ضامك الضيم أذكر أيام عرسك

وهل هناك أحلى من أيام عرس الصبا والشباب ؟ ألا ليتها تعود هذه الحارات والمحلات التي إندرس بعضها أو تهدم أو زال من الوجود أصلاً بسبب العمران والتشييد وشق الشوارع وتوسيع وأنشاء الميادين والساحات والحدائق والعمارات أو بسبب ما أصابها من تخريب أو دمار أو نتيجة تسرب المياه الجوفية ألى سراديب أهلها الأصليون من الذين تداولوا السكن في بيوت المحلة من أباء وأجداد وأبناء و أحفاد وقد هجروها وغادروها ألى مناطق أخرى من ضواحي بغداد ( *باب الشرقي ، البتاوين ، السعدون ، العلوية ، شارع أبي نؤاس ، الكرادة الشرقية ، الأعظمية ، وضواحي في جانب الكرخ* ) ولذلك فأن كثيراً من تلك المحلات وأسمائها ومرافقها ومعالمها وعوائلها ونشاطات أهلها وطبيعة ما كانو يمارسون من مهن وأعمال قد غابت أو غيبت عن ذواكرنا وعن صحائف التاريخ بسبب قدم العهد الذي تطاول حتى بلغ وتجاوز قرن من الزمان ولأن تاريخ مدينتنا الخالدة بغداد بأكمله وتمامه يساوي مجموع تواريخ حاراتها وأخبار أهلها والعكس صحيح أيضاً أن هذا التاريخ بمجموعه ومفرداته أصبح معرضاً للتشتيت والغياب والنسيان للأسباب التي ذكرناها أنفاً لذلك صار واجباً وطنياً فيه خدمة جليلة للتاريخ والتراث والمجتمع أن نسعى ألى تجميع وجرد وتبويب وتنظيم وتحقيق كل ما يصل ألينا أو نصل أليه نحن أهل كل محله على أنفراد من أخبار ومدونات وصور وخرائط وروايات ورسائل وأحاديث وذكريات وتدوينه بدقة في أوراق قد تستوي كراسه أو كتيباً أو كتاباً أو عدة كتب لا يهمنا ( الكم ) بل يهمنا ( الكيف ) أو ينشر على الناس ليكون موضوعاً للنقد والمراجعة والتغيير والأضافه والحذف من قبل الآخرين وبهذا التصرف فقط نستطيع حفظ تاريخ كل محلة بغدادية على أنفراد ليصار بعد أستكمال جميع الجوانب ألى حفظ تاريخ بغداد كلها وبغداد أمنا الرؤوم جديرة بكل جهد وسعي ومثابرة من أجل أبرازها على حقيقتها أفقاً للمعالي وملحمة للجلال ونجوى للخيال لقد عرفت بغداد من أكبرها ألى أصغر دربونة فيها بمسميات سكن ومفاهيم ومناسبات كثيرة معروفة وقد تغيرت الأسماء بعضها أو طواها الزمن فما نسبت ألى مراقد الأئمة والأولياء الصالحين والجوامع والمساجد نذكر الآتي ( *الكاظمية ، الأعظمية ، الفضل ، الأمام طه ، الشيخ عمر ، سراج الدين ، الصدرية ، باب الشيخ ، الخلاني ، قنبر علي ، الحيدر خانة ، مرجان ، السيد أدريس ، الشيخ معروف ، الشيخ جنيد ، سيد سلطان علي ، السيد عبد الله ، علي أفندي ، خضر ألياس ، جامع عطا ، براثا*) كما نسبت بعض المحلات ألى أصحاب الديانات غير المسلمة (*عقود النصارى ، كمب الأرمن ، الكنائس ، تحت التكية ، محلات اليهود ، التوراة* ) كذلك نسبت ألى أسماء الشخصيات ( *عباس أفندي ، الحاج فتحي ، جديد حسن باشا ، دكان شناوه ، الست نفيسة ، الست هدية ، سوق العجيمي سوق حمادة ، عقد كنج عثمان ، سوق حنون ، فليج أصلان ، السعدون ، العلوية ، كرادة مريم ، الارضروملي ، باب الأغا ، قرة شعبان ، قهوة شكر ، دكاكين حبو ، بنجه علي ، الوزيرية ، الخالدية ، الشوكية ، رخيتة ، سارة خاتون الأورفلي* ).

كما نسبت ألى العوائل والعشائر ( *العزة ، الكبيسات ، تبة الكرد ، بني سعيد الفناهرة ، التسابيل ، فضوة عرب ، الدشتي ، جميلة ، طاطران ، الهيتاويين ، أبو أقلام ، المشاهدة ، السوامرة ، الدوريين ، التكارتة ، الجعيفر ، ألبو مفرج ، ألبو شبل ، القره غول ، الفلاحات* ) ، أو لأصحاب المهن ( *سوق الصفافير ، الدنكجية ، القزازة ، السراجة ، الشواكة ، عقد الجام ، سوق الغزل ، باب السيف ، الأسكجية ، الفحامة ، الدهانة ، الحدادين ، صابونجية ، علاوي الحلة علاوي الجص ، علاوي الحنطة ، الكولات* ) .

هناك أسماء طريفة وغريبة منسوبة ألى حوادث ووقائع معينة منها ( خرطوم الفيل ، الفراشة ، عقد المنارة المكطومة ، عقد الصخر ، عقد كهوة المفاليس ، أم العظام ، الطوب ، سوق الجايف ، سوق السيان ، سوق الدجاج ، سوق الجديد ، القشل ، السور ، أبو دودو ، عقد الجرى ، سبع أبكار ، عقد النملة ، عقد الجلبة ، عقد نقدي ، عقد الضيق ، عقد العرض ، البستان ، رأس القرية ، رأس الساكية ، الفاطر خانة ، سوق الثلاثاء خان لاوند ، المربعة ، الكلجية ، كوك نظر ، البارودية ، البقجة ، السنك ، العوينة ، الكبي ، الدوكجية ، المنصور ، الأتون ، رأس الجسر) ، وآخيراً أقول

سلامٌ عليكِ يابغداد ياأيتها المدينة الخالدة وأرثة الأمجاد التليدة لكل مافيها من روعة وجلال

سلام على محلاتك العريقة والمضخمة بأريج الذكريات الحافلة بعبير الحكايات وروعة الأحاديث وجلال الأحداث

سلام لكل من كتب سطرا من سطور مجدك الباذخ وأضاف لبنة في هذا الصرح الشامخ

سلامٌ على كل المبدعين الذين تفننوا بما فضل الله عليهم من مواهب ليجعلوا منك بغداد فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

سلامٌ على كل الطيبين من أهالي بغداد الساحرة المعشوقة الضحوكة .

## الى رحمة الله

انتقل الى جوار ربه والد الزميل الباحث والناقد باسم عبد الحميد حمودي المحرر في جريدة المدى. وبهذا المصاب الاليم تتقدم اسرة (المدى) بتعازيها للزميل حمودي وللعائلة الكريمة، داعية المولى القدير ان يسكن الفقيد فسيح جناته ويلهم ذويه الصبر والسلوان

انا لله وانا اليه راجعون